الحديث ذو شجون

للدكتور زكى مبارك

عبد الوهاب عزام — ذكرى سعد — بين الدين والوطنية — سلامة موسى رجل غير موفق — نكتة أدبية — على هامش التاريخ المصرى القديم ، لسعادة الأستاذ عبد القادر حمزة باشا

عبد الوهاب عزام

قلت مرات كثيرة : إن الشجاعة الأدبية لا تقف عند القدرة على أن تقول للمسىء أسأت ، وإنما تسمو الشجاعة الأدبية فتصل إلى القدرة على أن تقول للمحسن أحسنت ، لأن ذلك يشهد بأن الناقد يملك السيطرة على هوى النفس

وأنا أحب أن أقول كلمة فى الدكتور « عبد الوهاب عزام » بعد أن سمعت المحاضرة التى ألقاها فى الذياع عن « أخلاق القرآن » فقد بهرت قلبى وعقلى ، وأشعرتنى بأن من العقوق أن أسكت عن توجيه القراء إلى متابعة هذا الباحث المفضال

وإنما وجب ذلك التوجيه لأن مباحث الدكتور عزام تتسم بالدقة وتخلو من البريق ، فهو لا يجذب إليه من القارئين والسامعين غير طلاب المعانى ، من الذين يعرفون من قبل أنه باحث على جانب عظيم من الدقة والعُمق .

فإذا استطعت بهذه الإشارة أن أدل قرائى على فضل هذا الباحث وأن أجذبهم إليه فسيذكرونى بالخير حين ينتفعون بما ينشر من مقالات أو يذيع من محاضرات

شمرت وأنا أسمع محاضرته عن أخلاق القرآن أن القرآن نزل أمس فهو يحدثنا بما نرى وما نسمع من معضلات الوجود ، ومع أن الدكتور عزام أثناء روحى بهذا المعنى فما أحسست أنه تكلف أو تعسف أو حاول الظهور بمظهر الغيرة على الشريعة الإسلامية ، فهو يُلقى كلاماً فطرياً سمحاً لا زُخرف فيه ولا تنميق ، وهو ينقل إلى سامعيه آيات القرآن فى لطف ورفق حتى لتكاد تحسب أنه وجدها مسطورة فى صفحة واحدة من صفحات المصحف الشريف

فإذا أضفنا إلى هذا أن الدكتور عزام رجلٌ أريحىّ النفس ، عذب الفُكاهة ، مصقول الحديث ، حضرىّ الشمائل ، أدركنا أنه من أعيان أهل الفضل فى هذا الجيل

ولو شئت لمضيت إلى آخر الشوط فقلت : إن صحبتى لهذا الصديق قد اتصلت بالفكر والروح أكثر من عشرين سنة ، وما أذكر أبداً أنى أحصيت عليه هفوة واحدة من هفوات الفكر والروح

فى الدكتور عبد الوهاب عزام عيبٌ واحد هو الهدوء ، ولكنه هدوء الطمأنينة لا هدوء الخمود ، فأرجو من القراء ومن المستمعين أن يذكروا أن هذا الرجل لا يكتب أو يتحدث إلا ليواجههم بأشياء من المعانى الصِّحاح فى الأدب والخُلُق والدين والتاريخ .

ذكرى سعد

من تحصيل الحاصل أن أقول إنى لم أكن وفدياً فى يوم من الأيام ، والوفد يعرف ذلك ، ومن أجل هذا كان يتغاضى عما أبثه فى مقالاتى من الدعوة إلى مبادئ الحزب الوطنى حين كنت أشتغل بالتحرير فى الجرائد الوفدية

وكنت أحضر الحفلات التى يقيمها الوفد لذكرى سعد تأييداً للمعنى الجميل الذى تنطوى عليه ، ثم هجرتُ تلك الحفلات بعد أن صارت تقام فى مكانين : أحدهما للهيئة الوفدية ، وثانيهما للهيئة السعدية ، تجنباً للظهور بمظهر التحزب لأحد الفريقين ، ولى فيهم أصدقاء أعزّاء

وفى اللحظة التى أكتب فيها هذا المقال تقام حفلتان لذكرى سعد ، وكان فى نيتى أن أحضر هاتين الحفلتين بلا تفريق لأواسى أصدقائى هنا وأصدقائى هناك

فما الذى صدنى عن حضور هاتين الحفلتين ؟

أذكر السبب فأقول :

لما مرض رفعة النحاس باشا ترفق سعادة الدكتور ماهر باشا ومضى لعيادته ، على ما كان بينهما من ضغائن سود وقفتهما حاقدَين أمام محكمة الجنايات

ولما عُوفى النحاس باشا مضى لزيارة من عادوه من الكبراء ،

واتفق أن لم يجد الدكتور ماهر باشا فى داره فترك له بطاقة وانصرف ، وإلى هنا أدى النحاس باشا واجبه تأدية صحيحة ، ولكنه رأى أنه كان يجب أن يُشعر الدكتور ماهر بزيارته لينتظره ، فترفق وأخبره بأنه سيزوره مرة ثانية ، ثم كان تلاقى كريم بين صديقين قديمين فرّقت بينهما الاجاجة الحزبية ، وهى خلاّقة المآثم والعيوب

هذا تصرّفٌ نبيل من هذين الرجلين ، فهل تعرفون كيف كان تأثير هذا التصرف النبيل فى الجرائد الوفدية والسعدية ؟

ظل التلاحى على ضرامه بين جريدة المصرى وجريدة الدستور ، ولسان حالها يقول :

إذا ما الجرح رم على فساد تبيّن فيه تقصير الطبيب

فهل يُلام مثلى إذا أضجرته هذه الحال فلم يشترك فى الاحتفال بذكرى سعد ؟

للسياسة فنون ، ومن فنون السياسة أن يكون الرجل أخاً صادقاً لجميع الوطنيين ، وكذلك تتحول السياسة إلى وطنية صحيحة تكره الهدم والتجريح

اختلفوا ما طاب لكم الخلاف ، يا بنى وطنى ، فالخلاف دليل الحيوية ، ثم احذروا العداوة والبغضاء ، لأنهما لا يصدُران عن أرباب القلوب

بين الدين والوطنية

يظهر أن مقالى فى نقد الأستاذ سلامة موسى لم يُرض جميع القراء ، فقد تلقيت خطاباً صَدَر عن مدينة فارسكور ، وهو خطاب لم يخلُ من تحامل ، وإن كانت عبارات كاتبه تشهد بأنه من المطلعين ، وكيف لا يكون كذلك وهو « ضبع » ؟ !

وأنا أحرص أشد الحرص على إزالة ما قد يقع بينى وبين قرائى من أسباب الشقاق ، لأنى طيب القلب إلى أبعد الحدود ، وإن قال قوم بأنى سأكون من حَطَب جهنم ، لطف الله بهم وهدانى !

فما الذى كنت قلت فى ذلك المقال ؟

أذكر أني قلت إن من واجب كل مصرى أن يعطف على العروبة والإسلام ، لأنهما سناد مصر فى الشرق ، وأذكر أنى قلت إن اهتمام الأستاذ مكرم باشا عُبيد بحفظ القرآن هو مظهر من مظاهر الوطنية ؛ فجاء كاتب الخطاب من فارسكور يقول :

« أهذه هى مقاييس الوطنية ؟ »

وأقول : نعم ، هذه مقاييس الوطنية ، بشهادة الأستاذ مكرم باشا عبيد

ولكن كيف ؟

ظهر الأستاذ مكرم عبيد على مسرح السياسة سنة ١٩١٩ قبل أن يولد كاتب الخطاب من فارسكور ، وكنت أنا يومئذ من المكتوين بنار الثورة المصرية ، فهل يعرف الناس كيف التفتنا إلى مكرم عبيد فى ذلك العهد ؟

كان مكرم سكرتيراً لأحد المستشارين الإنجليز ، ثم اندهش رئيسه من أن يشترك مع الموظفين المُضربين ، وكان اندهاشه لأنه يعرف أن مكرم عُبيد قبطىّ ، ولأنه يتوهم أن الأقباط لا يشاركون المسلمين فى الثورة على الاحتلال

ورأى مكرم أن يصحح موقفه أمام رئيسه فكتب إليه خطاباً يشرح له فيه كيف استجاز لنفسه أن يُضرب مع المضربين ، وساق فى ذلك الخطاب حديثاً لأحد القسيسين الأقباط قال فيه : « إذا صح أن الأقلية القبطية ستكون عقبة فى طريق الاستقلال فسندعو الأقباط جميعاً إلى الإسلام لتسقط حجة المحتلين »

وقد طبعنا خطاب مكرم عبيد إلى رئيسه الإنجليزى ومضينا فوزّعناه على الجماهير لنذكى به روح الوحدة القومية

ثم ماذا ؟

ثم نظر مكرم فرأى أن أبويه كانا سمّياه « وليم » فاستغنى عن اسمه الأجنبى واكتفى باسمه الوطنى ، وهو اسمٌ عربىٌّ صريح كان علماً لأحد أقطاب الأشراف بهذه البلاد

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم صرح مكرم باشا فى خطبة شهيرة بأنه مسلمٌ وطناً ، وأزهرىٌّ ثقافةً

فما معنى ذلك يا كاتب الخطاب من فارسكور ، عليها أطيب التحيات ؟

معناه أن مكرم باشا يرى الإسلام من أكبر عناصر الوطنية المصرية ، وأن الثقافة الأزهرية من مظاهر تلك الوطنية

وإنما استبحت لنفسي أن أخوض في هذه الأحاديث الشوائك لأني واثق بأني لن أجد من يتهمني بالتعصب الديني ، فأصدقائي الحقيقيون في مصر أكثرهم من الأقباط ، ولي بين نصارى الشام والعراق إخوان أوفياء يرونني أكرم صاحب وأوفى صديق ، وأراهم من أطيب الذخائر في حياتي ، ومن مسالكهم النبيلة أستمد التأييد لهذا الرأي الصريح

سلامة موسى رجل غير موفق

الأستاذ سلامة موسى صديق عزيز ، وقد تحدثت عنه في مقالاتي ومؤلفاتي بما هو له أهل ، وقد دفعت عنه قالة السوء حين كنت في العراق ، فقد كتب الأديب مشكور الأسدي خطاباً وجّهه إليّ في جريدة « الكلام » عن حقيقة سلامة موسى

ثم شاءت المقادير أن تعطّل الجريدة قبل أن تنشر جوابي وهو ثناء مستطاب على الصديق الذي كنت أحاربه بقلمي وأصافحه بقلبي

والحق أن الأستاذ سلامة موسى رجلٌ غير موفّق ، فهو يشمز المروءة والإسلام من وقت إلى وقت بلا موجب معقول ، وما ذكّرناه بمسلك الأستاذ مكرم عبيد إلا لندله على أن عقلاء الرجال لهم مسالك غير التي يسلك ، وهل كان مكرم باشا أول قبطي هدته الفطرة السليمة إلى أن القومية المصرية قومية إسلامية ؟

أذكر في هذا المجال الأستاذ وهبي بك مدير المدارس القبطية في الجيل الماضي القريب ، فهو الذي عرّب أسماء تلاميذ من الأقباط ليزج بهم في غمار المجتمع الإسلامي

وأذكر الأستاذ وهيب بك دوس أحد خطبائنا الكبار ، وأحد المتفوقين في الأدب العربي ، وأحد العارفين بأسرار الشريعة الإسلامية . أنا المسئول عن حقيقة هذا الثناء ، فما رأت عيني أديباً في مثل براعة وهيب دوس ، مع استثناء أفراد قلائل يسيطرون على الحياة الأدبية ، ويؤدّون الثقافة المصرية في الشرق

وأذكر القس ابراهيم لوقا راعي الكنيسة القبطية بمصر الجديدة ، وهو الذي اتهمته جريدة المكشوف بأنه ينقل عن بعض قساوسة لبنان ، ولو رآه حاسدوه وهو يهدر باللغة الفصيحة لأيقنوا أنه في غنى عن انتهاب الأفكار والآراء

وأذكر جريدة الإنذار بالمنيا وكدت أحسبها جريدة إسلامية لحرص صاحبها على نشر محاضرات الوعاظ من المسلمين

وخلاصة القول أن جمهور الأقباط في مصر لهم نزعة إسلامية عميقة ترجع إلى صدقهم في الوطنية . وقد كان الأقباط أصهار الرسول ، وهي وشيجة يحفظها الكرام من جيل إلى جيل ، وكذلك يصنع جميع الأفاضل من الأقباط ، إلا رجلاً واحداً يتجنى على المروءة والإسلام من حين إلى حين ، وهو الأستاذ سلامة موسى على أرجح الأقوال !

نكتة أدبية

قيل إن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كان يلام على اصطفائه للشاعر حافظ ابراهيم ، وكان شاعرنا حافظ فيما يذيع المرجفون رقيق الخُلُق والدين ، فقال الشيخ محمد عبده : لقد حببني حافظ ابراهيم عشرة أعوام فما استطعت أن أهديه ولا استطاع أن يضلني !

وأقول إنني صحبت الأستاذ سلامة موسى عشرة أعوام فاستطعت أن أهديه قليلاً ، وما استطاع أن يضلني ؟

وهل ترجع أيامنا بجريدة البلاغ وكنا شباناً نضطرم بجذوة الحرية العقلية ؟

كنا نجلس في مكتب واحد وجهاً إلى وجه نتساقى حلو الأحاديث ومرّ المقالات

وهل فر الأستاذ سلامة موسى من وجه ناقد كما فر من وجهي؟

ومع ذلك كان هذا الرجل أول من يتقدم لنصرتي في أيام الشدائد ، لأن سلامة رجل والرجال قليل

إليّ يا صديقي ، فما يستطيع الخلاف في الرأي أن يفسد ما بيني وبينك ، لأن الصداقة رأي يفوق جميع الآراء ، ونحن أولياء الصداقة في هذا الجيل المرتاب

التاريخ المصري القديم

كنت قلت في العدد الصريح الذي أخرجته مجلة « الإثنين » : إن الأستاذ عبد القادر حمزة باشا إمام من أئمة العقل ، ولكنه لا يجهد إلا حين يغضب ، وقد قلّت غضباته منذ عامين

كذلك قلت ، ولم أكن أعرف أن عبد القادر باشا سكت عامين ليستمد لإخراج كتابه النفيس « على هامش التاريخ المصرى القديم »

فما هذا الكتاب ؟

هو تحفة من تحف المنطق والعقل والذوق

هو سلسلة ذهبية تربط حاضر مصر بماضيها فى ترفق وتلطف ، وتروض المصرى على الاقتناع بأنه نشأ فى بلد كان المصدر الأصيل لجميع المدنيات

كان ابن العميد يقول : كُتُب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً

وكذلك أقول فى كتاب عبد القادر حمزة أو كتب عبد القادر حمزة ، لأن له أبحاثاً تاريخية سبقت كتابه الجديد ، وهى نماذج حية لقوة الأدب وسيطرة العقل

لا تجد فى هذا الكتاب عبارة تشعرك بأن المؤلف يعتسف فى تفسير النصوص ، أو يحاول إعطاء مصر ما ليست له بأهل ، وإنما تشعر بأنه باحث صادق يحاول تبيين ما لمصر من مزايا ذاتية بلا تزيد ولا إسراف

ويظهر من كتاب عبد القادر باشا أن المؤرخين متفقون على أن مصر هى مهد المدنية فى التاريخ ، وأن هناك آراء فى المفاضلة بينها وبين وطن الكلدان الذين كانوا يسكنون أحواض الفرات

معنى ذلك أن الحضارة القديمة مدينة لبلدين اثنين هما مصر والعراق .

ومعنى ذلك أيضاً أن المنافسة بين دجلة والفرات والنيل منافسة أزلية ، وأن التشابه بين المصريين والعراقيين فى الألوان والوجوه ومخارج الحروف له أصول ترجع إلى مئات الأجيال

كنا وكان العراقيون فى التاريخ القديم

فمتى نرجع إلى السيطرة على العالم فى التاريخ الحديث ؟

« لا حياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحياة »

ولا بد يوماً أن تُرَدَّ الودائع ، ولو طال مطال الزمان

زكى مبارك

خواطر فى الحرب

للأستاذ محمد عرفة

حدثنى من لا أتهمها فى الحديث أن زوجها بنى بها قبل الثورة العرابية بقليل ، وكان صغيراً وقد ترك له والده ضيعة واسعة ، فلما كانت الثورة العرابية وهاجر الأسكندريون إلى البلاد التى يظنون فيها الأمن نزح كثير منهم إلى بلده وكان منهم فقراء ومعوزون فرأى حاجتهم ، ففرق فيهم البر الذى أغلته ضيعته حباً ودقيقاً وخبزاً ، فدخلت علىّ جاراتى وذكرن صغر زوجى وما يستلزمه الصغر من السفه ، وأنه فرّق غلة العام على المهاجرين فاعذليه فى ذلك ، فإن لم يصغ فاشكيه إلى أبيك . قالت : فعذلته ، فقال : ويك لا أسمع قول العاذلين

فشكوته إلى أبى فقال : يابنيتى قدّرى أنك المهاجرة فهل كنت تودين أن يمنع ذوو المعروف عنك معروفهم . أو كنت تودين أن يعطوك الفضل من ما لهم وتحقدين على من لم يعط . يا بنيتى إن فى هؤلاء المهاجرين من كان آمناً فى سربه ، مُعافىً فى بدنه ، واجداً قوت عامه ، فكفى عن عذله ، فلم يفعل إلا الصواب. هذا رأى أبى فما رأيك أنت ؟ ، فقلت : هى رقعة قد ضلوا فى صحراء موحشة وقد فقدوا ماءهم إلا واحداً قد بقى معه فضل من مائه ، أيجوز له أن يمنعه رفقته حتى يهلكوا عطشاً ، أم يلزمه أن يعطيهم من فضل مائه ليستعينوا به على قطع الطريق حتى يصلوا إلى العمران ؟ قالت : يلزمه ألا يمنعهم ماءه لئلا يهلكوا عطشاً ، قلت : وهذا ما فعله زوجك

وقد دار الدهر دورته وجاءت هذه الحرب واضطر بعض أهل المدن إلى الهجرة إلى الريف ، وإن منهم صنّاعاً تركوا صناعتهم ، وعمالاً تركوا عملهم ؛ فهل من أغنياء الأمة من يكونون لهم كما كان ذلك المحسن العظيم ؟ قد كان فى الإمكان أن تقول الحكومة افعلى ، ولكننا اغتنمناها فرصة ليربى فينا خلق المحبة والإيثار ، والكرم والإعطاء وروح التناصر والتعاون

إذا كنت ربّاً للقلوص فلا تدع
صديقك يمشى خلفها غير راكبِ
أنخْها فأردفْه فإن حملتكما فذاك وإن كان العقاب فعاقب

محمد عرفة